✹ سورة الأعلى:

1) اسم السورة:

هذه السورة تسمى بسورة الأعلى، وسورة سبِّح ، وكلاهما مأخوذ من الآية الأولى من آيات هذه السورة، سبِّح، والأعلى.

2) أين نزلت؟

جمهور المفسرين: على أنها نزلت بمكة. وهذا هو القول الصحيح .

الدليل: حديث البراء بن عازب أنه قال: "أول مَن قدم علينا مصعب بن عمير في جماعة، ثم قدم فلان وفلان وفلان، ثم قدم عمر في عشرين، ثم قدم النبي ﷺ فما فرح الناس بشيء فرحهم برسول الله ﷺ وعندما جاء كنت قد حفظتُ سورة سبِّح في سِوَرٍ مثلها".

هذا يدل على أن سورة سبِّح قد نزلت وجاء بها الصحابة إلى المدينة قبل أن يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة.

ومن معناها ومضمونها نستدل على أنها كانت سورة مكية.

بعض العلماء: قد ذكرهم السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن، قال: "ومن الناس مَن قال إنها سورة مدنية ، وقد أخذو ذلك من معنى أوقول أحد المفسرين في تفسير آية من آياتها، وهي قول الله –عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾"

قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ هي زكاة الفطر ، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ أي صلاة العيد.

قالوا: وزكاة الفطر وصلاة العيد ما نزلت إلا في المدينة، فأخذوا من هذا أنها نازلة في المدينة".

فنقول: هذا غير صحيح، لأن هذا التفسير من هؤلاء الأئمة إنما أريد به المثال، وإلا قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ يُراد بها ما هو أعم من زكاة الفطر وأعم من زكاة المال من جميع الأعمال الصالحة.

3) عدد آياتها :

لم يختلف العلماء في أنها تسع عشرة آية.

4) محورها:

يمكن أن يُقال:أن محور السورة هو التسبيح ومسبباته، ومَن يستجيب، ومَن لا يستجيب.

ويمكن أن يُقال: أن محور السورة: ذكر دلائل القدرة الإلاهية ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾، ومن يؤمن بهذا ومَن لا يؤمن.

ويمكن أن يُقال: أن محورها هو التزكي، لأن الله قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى *وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى* بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا*وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا﴾ أي قوله قد أفلح من تزكى ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾

5) مناسبتها لسورة الطارق:

سورة الطارق جاءت لبيان دلائل القدرة والعناية بهذا الإنسان، والتخويف من عاقبة التكذيب، وتهديد هؤلاء الكفار الذين كذبوا.

وهذه السورة أيضًا جاء فيها شيءٌ من ذلك، عندما قال الله –عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ** سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى* وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾.

6) فضائلها:

1. أنها تُقرأ في صلاة الوتر.

الدليل: أن النبي ﷺ ﴿ كان يقرأ "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى"، و"قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ"، و"قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ" في ركعات الوتر الثلاث التي يختم بها قيام

الليل﴾ ، وصلاة الوتر هي أفضل الصلوات النافلة بالإجماع، وينبغي للمسلم أن يحرص عليه.

قال الإمام أحمد: "لا يتركه إلا رجل سوء"

أقلُّ الوتر ركعة، وأقل الكمال فيه ثلاث ركعات، وأما أكثره فلا حدَّ له، وقد كان النبي ﷺ يقوم بإحدى عشرة، تقول عائشة في صفتها: ﴿كان يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يوتر بثلاث﴾.

2. أنها تُقرأ في صلاة الجمعة.

3. أنها تُقرأ في صلاة العيدين مع سورة الغاشية.

وقد حاولت أن أتلمَّس لما اختيرت لصلاة العيد ولصلاة الجمعة -والله أعلم- أن ما أقوله اجتهادًا منِّي ولا أقوله لأني وجدت شيئًا يسند ذلك أو قال به أحد فأنسب هذا القول إليه، أنه ورد في هاتين السورتين -سورة الأعلى وسورة الغاشية- ما يدل على التذكير، ففي هذه السورة قال ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ وفي سورة الغاشية قال الله -عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾

وفي الجمعة يكون هناك تذكير بالخطبة، وفي العيد يكون هناك تذكير بالخطبة، فتأتي هاتان السورتان لتبيِّن أنك إنما أنت مذكر، فمن الناس مَن ينتفع بتذكيرك، ومنهم مَن لا ينتفع بتذكيرك.

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾:

سَبِّحِ: هذا أمر بالتسبيح ،وهوخطاب يصلح أن يُقال أنه لرسول الله أو لكل مَن يقرأ هذه الآية.

التسبيح: هو التنزيه، ومعنى سبِّح: أي نزِّه ، وسبحان: هذا تنزيه لله -عز وجل، يُقال: سبِّح، وسبحان، ويُسبِّح.

وقد جاء التسبيح مفتتحًا به في سبع سور من القرآن الكريم. ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: 1].

وعندنا سور المسبحات: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ [الحديد] ، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ [الحشر]، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ [الصف]، و﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة]، و﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ [التغابن]، و﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ .

وقد افتُتِحَت سبع سور من القرآن الكريم بلفظ التسبيح وانتظمت جميع التصرفات:

- المصدر: سبحان.
- الفعل الماضي: سبَّح.
- الفعل المضارع: يشبح.
- الفعل الأمر:سبِّح اسم ربك الأعلى.

وهذا يدلنا على عظم التسبيح وأهمية منزلته، ولذلك جُعِلَ جزءًا من الأذكار التي يقولها المسلم في اليوم والليلة، في الصباح والمساء، وفي كل وقت، وفي الركوع وفي السجود كما جاء في هذه الآية عندما نزلت، قال النبي ﷺ: ﴿اجعلوها في سجودكم﴾.

ولذلك تُشرع في سجود الصلاة المفروضة والنافلة، وفي سجود التلاوة، وفي سجود الشكر، وفي سجود السهو، لأن النبي ﷺ قال مُطلِقًا: ﴿اجعلوها في سجودكم﴾.

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى: المُسبَّح في الحقيقة هنا هو الرب وليس الاسم ، فالمنزه هو الرب وإنما جيء بالاسم ليبيِّن أن التسبيح لابد أن يكون مذكورًا فيه الاسم، وليس المقصود تسبيح القلب؛ بل المقصود تسبيح القلب مع تسبيح اللسان.

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى: أي سبِّح ربَّك ذاكرًا اسمَه .

الْأَعْلَى: جاء بوصف "الأعلى" ليدل على أن لله -عز وجل- العلو الكامل، ولم يقيِّده بعلوٍّ معين ليدل على أن له العلو بأنواع الثلاث: علو الذات، وعلو

القدر، وعلو القهر.

علو الذات: وهو أن الله -سبحانه وتعالى- مستوٍ على عرشه فوق سماواته، بائنٌ من خلقه، يُشار إليه بجهة العلو، كما قال النبي ﷺ للجارية: ﴿أين الله؟. قالت: في السماء. قال لسيدها: أعتقها فإنها مؤمنة﴾.

وقد ثبت علو الذات- بأدلة كثيرة، أدلة من الكتاب، ومن السنة، ومن إجماع السلف الصالح، ومن العقل، ومن الفطرة.

وهذه الأدلة قلَّما تجتمع في شيءٍ محدد،لأنه قد وقع فيها الخلاف بين الطوائف الإسلامية، بخلاف علو القدر وعلو القهر فإنه لم يقع فيهما خلاف بين الطوائف الإسلامية.

علو القهر: وهو أنه مستعلٍ على خلقه، قاهر لهم.

فأنت إذا قلت "الأعلى" تثبت لله العلو من جوانبه الثلاثة: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر.

ويقول المسلم هذه الكلمة عند السجود لأنه يهوي بأعلى ما فيه إلى الأرض، فيتذكر بذلك علو الله الذي له العلو الكامل من جميع النواحي.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾:

قال واصفًا نفسه: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾:

الَّذِي خَلَقَ: أي خلق كل شيء.

فَسَوَّى: أي جعله مناسبًا لما خُلق له.

مثلًا: خلق العينين وجعلهما في الرأس من أجل أن تبصر الأشياء، لو جعل العينين مثلًا في الرجلين لكان الأمر فيه مشقة، وكذلك جعل العظام القويَّة في الأسفل لتحمل البدن، هذا من التسوية.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾:

قدَّر كل شيء فهداه لما يُصلحه، فأنت ترى السخلة تخرج من بطن أمها، وفي دقائق تهتدي إلى ثدي أمها وتعرف مكان اللبن علمًا بأن أمها لا تلقمها ثديها ولا أن يكون ذلك بتعليم من الأم.

وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى: وهذا في جميع المخلوقات، وفي ابن آدم هداه لسبيل الخير وسبيل الشر ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾:

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى* وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ هذا من عطف الصفات وليس في الذوات.مثلما تقول جاء محمد الكاتب والشاعر.

أَخْرَجَ الْمَرْعَى: أي النبات والكلأ.

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾:

فَجَعَلَهُ: جعل هذا المرعى الأخضر.

غُثَاءً:أي يابسًا.

أَحْوَى: قد اسودَّ من اليُبسِ.

وهذا فيه تذكير بأمر البعث، لأن أمر البعث يكون كما يكون حال هذا النبات في البراري، يصل إلى حالة اليُبس، ثم ينزل عليه المطر في الموسم القادم فيعود أخضر، كذلك أنتم يا بني آدم تموتون فتبلون فيبعثكم الله -سبحانه وتعالى- فتعودون كما كنتم.

قال بعض العلماء: "والذي أخرج المرعى أحوى، فجعله غثاءً"، فجعلوا كلمة "أحوى" من وصف "المرعى".

وهذا القول يُخالف ترتيب الآية ونسقها، وما دام كذلك؛ فإننا لا نقول به إلا إذا اضطرنا إليه. وهذه قاعدة من قواعد التفسير وهي:

القاعدة تقول: أننا لا نخالف الترتيب في الآية ونظم الآية، ونقدم فيها المؤخر ونؤخر فيها المقدم إلا إذا لم يكن للآية وجه إلا أن تُحمل على ذلك.

أما إذا كان لها وجه بأن تُحمل على نظمها المذكور في كتاب الله -عز وجل- فإن الراجح هو أن تبقى على نظمها، وتكون كلمة "أحوى" من وصف "غثاء"، وليست من وصف "المرعى".

فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى: فجعله يابسًا مسودًّا من طولِ اليُبس.

قال بعضهم: "والذي أخرج المرعى أحوى" أي مسودًّا من خضرته، "فجعله الله غثاءً" أي يابسًا بعد أن كان أخضرَ شديدَ الخضرة. فهذا قولٌ يُخالف الترتيب. وهذه قاعدة من قواعد الترجيح.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى* إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾:

في هذه الآية ذكر الوعد الأول لرسولنا ﷺ ، يا محمد هذا وعدٌ منَّا أننا سنقرئك فلا تنسى شيئًا من هذا القرآن الذي أقرأناكَ إيَّاه.

فَلَا تَنْسَى: "لا" هنا اختُلفَ فيها هل هي نافية أو ناهية.

لكن الصحيح أنها نافية ، بدليل وجود الألف المقصورة في "تنسى"، لأنه لو كانت ناهية لكانت الألف المقصورة قد حذفت ، وهذا من المرجحات، وهو الاستدلال بالرسم على صحة أحد القولين.

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى: أي سنقرئك ما نوحي إليك يا محمد فلا تنسى شيئًا منه، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾.

إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ: يعني إلا ما شاء الله أن تنساه .

وهذا قد جاء تأويله في سورة البقرة في قول الله -عز وجل: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أو مِثْلِهَا﴾

فالرسول ﷺ يوحى إليه بالآيات، ثم يشاء الله -عز وجل- أن ينسخ هذه الآيات ويرفعها بعد أن أُنزلَت بحكمة يعلمها -سبحانه وتعالى.

ولا مانع أيضًا من أن يدخل في حكم الآية معنى آخر وهو أن النبي ﷺ قد يوحى إليه بالآيات فيقرأها على أصحابه فيحفظونها ثم ينساها في لحظة من اللحظات بحكم البشرية، لأن رسول الله ﷺ بشر، وقد قال ﷺ: ﴿إنما أنا بشرٌ أنسَى كما تنسون، فإذا نسيتُ فذكروني﴾، وقد أُرتِجَ في صلاته ﷺ فلم يفتح عليه أحدٌ من الصحابة، فلما سلَّم قال: ﴿أين فلان؟ لمَ لمْ تفتح عليّ؟﴾

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾:

لما ذكر النسيان ذكر علم الله لمناسبته في هذا الموطن، فإن الله -سبحانه وتعالى- لا ينسى ولا يليق به أن ينسى، قال: ﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾ ، فهو -سبحانه وتعالى- الذي يعلم ما نجهر به وما نخفيه.

سؤال:

إذا كان الله يعلم ما نخفيه فهو قطعًا يعلم ما نجهر به، فما الذي جعله يقول: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ لماذا لم يكتفِ بقوله: "إنه يعلم ما يُخفى" مثلًا.

الجواب :

ليبين لك الله أن علمه بالجهر وبما يُخفى على قدر سواء، فنحن يختلف عندنا ما يُخفى عما يُجهر، أما الله -سبحانه وتعالى- ما تخفيه وما تسره في نفسك وما تعلنه؛ كلها بالنسة له سواء -سبحانه وتعالى.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾:

في هذه الآية ذكر الله سبحانه وتعالى الوعد الثاني لرسولنا ﷺ وهو: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ هذا وعدٌ كريم لرسولنا ﷺ وهو أن الله سيهيِّئ له أسباب اليسر، الأسباب الموصلة إلى الجنة وأسباب الحياة الكريمة بيسر ، ومن ذلك يسر دينه ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ ميسرًا في كل شؤونه، في نومه، في طعامه، وشرابه، في مركوبه، في حياته الزوجية، في بيته، مع إخوانه وأهله، مع أصحابه، في كلِّ حالٍ من أحواله، لأن الله قد يسر له حياته، لأنه هو ﷺ يحب اليسر، ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا.

فكان ﷺ ينام على الحصير فيؤثر في جنبه، وما قُدِّم له شيءٌ إلا إن اشتهاه أكله، وإلا تركه، وما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط.

وقد قيل في وصفه ﷺ: "إنه لا يردُّ موجودًا ولا يتكلَّف مفقودًا".

﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾:

بعد هذين الوعدين أمره بأن يذكر.

التذكير: يكون بتعليم الشيء الذي يجهل الناس، ويكون أيضًا بتكرار الشيء الذي قد عُلِّموه .

إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى: فسرت على قولين:

❖ الأول:أن من العلماء: من قال في تفسير ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ ، أنه متى ما رجوتَ أو غلب على ظنِّك أن الذكرى تنفع فذكر، ومتى ظننت أن الذكرى لا تنفع فلا تفعل.

مثلا: قد تجد إنسانًا غاضبًا ويزمجر ويتكلم فترى أنك لو ذكرته أو تكلمت معه لازداد غضبًا، فأنت ترجئ التذكير إلى وقتٍ آخر.

❖ الثاني : أن بعض أهل العلم يرى أن المعنى: فذكر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع، لأن الذكرة نافعة في كل حال.

قالوا: ويدل لذلك ما يأتي من الآيات، لأن الله قال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾، فقوله ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ يدل على أن هناك من الناس مَن يُذكَّر ونحن نعلم أنه لا يتذكر.

قالوا: هذه الآية إنما نصَّت على التذكير في موطن النفع، ولكنها لم تنهَ عن التذكير في غير موطن النفع، يعن ما قالت: "فذكر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع فلا تذكر".

والآيات تدل على أن الذكرى نافعة بكل حال، لأنها تكون على الذي يخشى تنفع بالاتباع، والذي لم يخشَ تنفع بإقامة الحجة وبراءة الذمة.

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾:

هذا وصفٌ لمَن يتذكر وهو أنه يخشى، فكل مَن وقعت الخشية في قلبه والخوف من الله –فإنه يتذكر.

مَنْ يَخْشَى: مَن يخشى الله –سبحانه وتعالى– سيتذكر وينتفع بما يسمع من الموعظة والأمر والنهي والعلم.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾:

يَتَجَنَّبُهَا: أي يبتعد عنها ويجانبها فلا يقبلها ولا يستمع إليها.

الأشقى: الذي كتب الله عليه الشِّقوَة.

﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾:

يَصْلَى: أي يدخل ويقاسي حرَّ النار.

النَّارَ الْكُبْرَى: وهي نار جهنم.

و قوله ﴿الْكُبْرَى﴾ يدل على أن هناك نارًا قبلها وهي النار التي تنال الإنسان في قبره لأن مَن يُعذَّب في قبره يُفتَح له باب إلى النار، فيأتيه من سمومها وحرها فيقول: "يا ربّ لا تقم الساعة، لا تقم الساعة". لَما يعلم من أن عذابه إذا بُعثَ أشد من عذابه وهو في قبره.

﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾:

يعني لا هو ميتٌ فيستريح، ولا هو حيٌّ فيتنعم ويتلذذ بحياته.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾:

قد: هذه تدل على التحقيق، يعني تحَقَق، فهي من أدوات التأكيد.

أَفْلَحَ: فاز وظفر بالمطلوب ، ومنه سميَ "الفلاح" لأنه يفلح الأرض لأنه يفوز بالثمرة والزرع والغرس.

مَنْ تَزَكَّى: أي مَن زكَّى نفسه وطهرها ، والتزكِّي مبني على أمرين: (تخلية ، وتحلية).

الأول: تخليه من الشرك، من البدعة ومن المعصية.

الثاني: تحليه بالتوحيد والإيمان، وبالسنة، وبالطاعة والأعمال الصالحة، ولابد لك من ذلك، وإلا فلا تزكية.

مثل النبات تمامًا ، لا يمكن أن ينبت الغرس إلا بشيئين: (أن تنظف الأرض من الشوائب ومن الحشرات التي تقتل وتؤذي النبات، وكذلك أن تسقي الأرض بالماء الطيب، وفي الوقت ذاته تضع المواد التي تعين هذا النبات على الحياة)

التزكية: تأتي في اللغة بمعنيين لابد من مراعاتهما لمن أراد أن يتزكى:

الأول: الزكاء بمعنى الطهارة، يقال: نفس زاكية أي طاهرة.

الثاني: والزكاء بمعنى النماء، يقال زكى الشيء أي نما وزاد.

ومنه زكاة المال سميت بذلك لأنها تطهر المال من الخبث الذي دخل فيه وتنميه ، فما أحد زكَّى ماله إلا زاد الله ماله، كما قال النبي ﷺ: ﴿ما نقصت صدقة من مال﴾.

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى: طهر نفسه من الذنوب والمعاصي، وزكَّى نفسه بالإيمان والتوحيد والطاعة.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾:

وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّه:أي أكثر من ذكر اسم الله -عز وجل.

فَصَلَّى: جعل الصلاة مبنية على ذكر اسم الله ليبين لنا أن الذي يذكر الله ويعظم الله في نفسه، ويكثر من ذكره بلسانه يدعوه ذلك إلى أن يستكثر من الصلاة، وتستجيب للصلاة أعضاؤه، ويستجيب له بدنه، مَن أكثر من ذكر الله أحب الصلاة واطال فيها وخشع فيها، ومَن أقلَّ من ذكر الله عظمت عليه الصلاة وضعفت جوارحه عنها.

بعض العلماء: يقول ﴿تَزَكَّى﴾ أي زكاة الفطر، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ ، صلاة العيد.

نقول: هذا مثال، وليس هو معنى الآية بالتحديد؛ بل معناها اعم من ذلك.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾:

بَلْ: هنا جاءت للإضراب الإنتقالي

تُؤْثِرُونَ: أي تقدمون وتختارون الحياة الدنيا الفانية العاجلة، لما طُبع فيكم من حب العاجل.

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى: يعني كيف تؤثرون الدنيا الفانية الأولى العاجلة، والآخرة قد جمعت بين أمرين عظيمين:

الأول: أنها خير، خير في ذاتها.

الثاني: أنها باقية.

قال أحد السلف: "لو كانت الآخرة خزفًا يبقى، والدنيا ذهبًا يفنى؛ لكان حريًّا بالعاقل أن يأخذ الأبقى ، فكيف والآخرة ذهب يبقى، والدنيا خزف يفنى؟!".

قال الله سبحانه وتعالى مؤكدًا هذا الكلام ومبينًا أنه كلام يستحق أن تعقد عليه الخناصر، وأن يؤخذ بكل جدٍّ واهتمام:

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾:

إِنَّ هَذَا: أي هذا الوارد أو المذكور، وهو اسم الإشارة يعود إلى :

من العلماء مَن قال: أنه عائد على قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وما بعدها.

ومن العلماء مَن قال: أنه عائد على السورة من أولها.

الأظهر هو الأول لأن الكلام الأول فيه حديث عن رسول الله ﷺ ، ثم إن "هذا" اسم إشارة للقريب، فتعود إلى أقرب كلام يصح أن يُنسب أو يُشار إليه .

لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى: مذكور في الصحف الأولى التي سبقت هذه الصحيفة التي أنزلت على محمدٍ ﷺ وهي القرآن.

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى: ذكر منها صحف إبراهيم، وهي الكتاب الذي أنزل على إبراهيم تسمى صحف إبراهيم، ولا يُعرف لها اسم آخر غير هذا، وصحف موسى وهي التوراة.

✹ سورة الغاشية:

1) موضوعها:

تتحدث هذه السورة عن الغاشية وهي يوم القيامة وما فيها من الهول، وانقسام الناس إلى فريقين:

الأول: فريق من أصحاب الوجوه الخاشعة العاملة الناصبة التي تصلى نارًا حامية.

الثاني: فريق من أصحاب الوجوه الناعمة التي أعدَّ الله –عز وجل– لها ما لا عين رات ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

2) أين نزلت؟:

هي سورة مكيَّة بالإجماع ولم يُختَلَف فيها.

3) فضيلتها:

جاء في فضيلتها أنها تُقرأ في صلاة الجمعة، وتقرأ في صلاة العيد .

4) تفسير الآيات:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾:

هل: يراد به هنا التهويل والتفخيم ، هل جاءك هذا الحديث الفخيم العظيم وهو حديث الغاشية.

الغاشية:

أكثر المفسرين من السلف: على أن الغاشية هي اسم من أسماء يوم القيامة.

وذلك لأنها تغشى الناس بهولها، وضجيجها، وصوتها، ورعبها المرجف الذي لا يدع شيئًا من الأفئدة إلا ملأه بالخوف والرهبة، وقد جاء للقيامة في القرآن أسماء منها: الحاقة، والقارعة، والصاخة، والطامة، والقيامة، والغاشية، ويوم التناد.

قال بعض المفسرين: أن "الغاشية" هنا اسم للنار، ولا مانع من أن يكون اسمًا من أسماء النار.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾:

وُجُوهٌ: وصف الوجوه، والمقصود أهلها كلهم، يعني بجميع أعضائهم وحواسهم، لكنه ذكر الوجه لأنه هو الذي يعبر عن كثلة البدن، فأنت تعرف من

وجه الإنسان أنه مسرور، وأنه حزين، وأنه متألم من قسمات وجهه؛ بل حتى سريرته تبدو لك من صفحة وجهه، كما قال عثمان -رضي الله عنه: "ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحة وجهه وفلتات لسانه".

خَاشِعَةٌ: هذا الخشوع مخالفٌ لما كان عليه في الدنيا، فإنه كان في الدنيا لا يعرف الخشوع، لكنه كان في فرح، وضحك، ولعب، ولهو ، فيأتي يوم القيامة ليكون بضدِّ حاله في الدنيا.

﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾:

أي في يوم القيامة وفي النار هذه الوجوه وهؤلاء الناس الكفار يعملون عملًا كثيرًا هو جزء من جزائهم وعذابهم، وينصبون نصبًا شديدًا، فقد يكونون في الدنيا ممن ارتاح واستلذّ وطابت له الحياة، لا يصوم، لا يصلي، لأن هذه الأعمال فيها مشقة، ولها ضريبة فلا نشك في ذلك، ولكن الله -سبحانه وتعالى- يجعل عوضها راحة وسعادة أبدية يلقاها المؤمن إذا بعث يوم القيامة.

عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ: يراد بها هذا العمل والمشقة الهائلة التي تدخر لهؤلاء في النار، فهم فيها يجرون السلاسل، ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ يعني سيعمل عملًا شديدًا ويعذب عذابًا أكيدًا نكدًا ويتعب منه ويشقى.

حتى إنهم ينادون مالك ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾يقال أنه يجيبهم بعد أربعين ألف سنة، يقول لهم: إنكم ماكثون، أي باقون فيها بقاءً تامًا أبديًّا.

ومَن قال: أن "عاملة ناصبة" نزلت في الرهبان الذين يتعبدون إلى الله في الصوامع، فهذا غير صحيح، لأن الحديث في سياقه عن القيامة وليس عن الدنيا

فإن قيل: القصة الواردة عن عمر أنه مرَّ على راهبٍ فناداه، فلما طلع إليه بكى عمر وقال ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾

نقول: هذا وإن صحَّ عن عمر؛ فإنما مراده أن يستعير اللفظ، استعار اللفظ القرآني لهذا الشيء الذي رآه، وهو أنه يرى إنسانًا يعمل وينصب نصبًا شديدًا وفي النهاية لن يُجزَ على نصبه بشيء لأنه لم يُوحِّد الله -عز وجل- ولم يؤمن برسول الله ﷺ.

﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾:

تَصلى: أي تُدخَل، وفي قراءة ﴿تُصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾، أي نارًا شديدة.

حَامِيَةً: أي حارة شديدة الحرارة.

﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾:

آنِيَةٍ:أي يؤتى لها بشرابٍ من عين حارة شديدة الحرارة قد بلغت من الحرارة منتهاها.

منهم من قال: ﴿آنِيَةٍ﴾ بمعنى حاضرة. وهذا المعنى ليس سديدًا، إنما من لوازم معنى قوله تغلي أشد الغليان.

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾:

أي ليس لهم في النار طعام إلا من هذا الطعام الذي لا ينفعه، وهو الضريع.

ضريع: عند العرب يُطلق على شجرة اسمها "الشِّبرق"، شجرة من الشوك الذي لا يكاد يؤكل ولا يُنتفع به .لأن من الشوك ما تأكله وتنتفع به البهائم والإبل .

فهذا "الضريع" هو الذي سيكون للكفار، لكن ليس بين ما في النار وما في الدنيا إلا الاسم فقط، وأما الحقيقة فمختلفة تمامًا، كما أن ما في الجنة وما في الدنيا من النعم ليس بينها من الاشتراك إلا في الاسم فقط، وإلا فالحقيقة مختلفة تمامًا.

قال: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾، ثم وصفه بقوله:

﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾:

لايسمن: أي لا ينفع البدن بالسِّمَن ولا يغذي.

وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ: لا يدفع الجوع ، إذن ما فيه فائدة أبدًا.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾:

هذه على طريقة القرآن في المثاني، وهي أنه –سبحانه وتعالى– ذكر عذاب الكفار، وذكر في مقابله نعيم اهل الجنة، فوصف الوجوه لأنها إذا ظهرت عليها أثر النعمة والسرور دلَّ ذلك على أن باقي الجسم والنفس والقلب كلها في خير وحبور.

﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾:

أي لعملها وكدها الذي كان منها في الدنيا راضية.

لسعيها راضية: يعني لجزاء سعيها راضية، فهي الآن ترى جزاء السعي فترضى رضًى شديدًا

راضية: الرضى هو منتهى الفرح بالنتيجة.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾

أي رفيعة، وليست سافلة.

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾:

لا تسمع فيها كلمة لاغية باطلة مؤذية من اللغو الذي لا ينفع، بل قد يضر الإنسان سماعه؛ بل كل الكلام الذي يُسمع فيها كلام طيب، وكلام حق.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾:

عين: أي عيون، فكلمة "عين" هنا اسم جنس يدل على العيون التي في الجنة.

جَارِيَةٌ: ليست ماكثة وباقية لتأسن ويصبح فيها الآفات وغيرها ، وهذا ألذ حتى في النظر.

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾:

سررها من طيبها ولينها وجمالها مرفوعة، وكلما كان السرير مرفوعًا كان أبهى في النظر، أحسن في المجلس، وألذ وأتم في النعمة.

﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾:

أكواب مُعدَّة للشراب موضوعة بين أيديهم، متى أرادوا أن يشربوا فإنهم يجدون الشراب، ويجدون الكوب الذي يملؤونه بما يشاؤون من أنواع الأشربة.

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾:

نمارق: جمع نمرقة، والنمرقة هي الوسادة.

مَصْفُوفَةٌ: أي قد صُفَّت صفًّا جميلًا بديعًا رائعًا.وهذه مراعاة للجمال في الأثاث.

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ :

زرابي:أي بُسُط.

مبثوثة: أي قد وُزِّعَت في أماكن متعددة، أينما تريد أن تجلس تجد هذه الزرابي، وتجد تلك الوسائد.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾:

هذا من باب استفهام يراد به التبكيت، يعني هذه نذارة الله لكم، وهذا ما وعدتم به، أو حُذِّرتم منه، ما الذي يجعلكم تكفرون؟!

أَفَلَا يَنْظُرُونَ : أفلم تروا إلى قدرة الله –عز وجل– المبثوثة بين أيديكم؟!

الْإِبِلِ: بدأ بالإبل لقربها منهم، ولكثرة ما فيها من الأعاجيب، وما زال العلماء والعلم إلى اليوم يكتشف في الإبل أشياء عجيبة جدًّا، صبرها على العطش

الطويل، كونها تحمل الأثقال وهي جالسة ، كونها يُشرب حليبها، يؤكل لحمها، يُركب ظهرها، تهتدي إلى أماكن ما، تهتدي إلى المكان الذي رجعت منه، تعرف صاحبها، تحقد فتنتقم ولو بعد سنين، تعرف الذي يُحسن إليها فتحسن إليه.

كَيْفَ خُلِقَتْ: يعني مَن الذي خلقها هذه الخِلقَة ، إذن فما الذي يدعوهم لإنكار البعث، وإنكار ما تأتي به يا محمد ﷺ من العجائب في هذا القرآن والحقائق التي لا يجوز إنكارها، ولا يمكن لعاقل أن يشكَّ فيها.

﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾:

نصبت: أي جُعلت منصوبة عالية.

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾:

فإن قيل: هل الأرض مسطحة؟

قلنا: نعم، هي في نظرنا مسطحة، وإن كانت في جملتها كريَّة مدوَّرة، لكن في النظر نراها أمامنا سطحًا واضحًا ظاهرًا.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾:

فَذَكِّرْ: يا محمد، أنت بعد أن أقمت الحجج، وبينت الدلائل، وذكرت المصائر والجزاء.

إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ: هذه مهمتك، ليس عليك أن تخلق الهداية في قلوب هؤلاء؛ بل عليكَ أن تذكرهم، وليس عليك شيء آخر.

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾:

لستَ قهَّارًا لهم تجبرهم على الإيمان، وما أنت عليهم بجبار.

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾:

إلا: هنا بمعنى لكن، يعني "لكن مَن تولى وكفر"

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾:

وهذا كما في سورة الأعلى قال: ﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾، وهنا قال: ﴿الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾.

ثم هدَّد بقوله:

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾:

مرجعهم ومصيرهم إلينا، فنحاسبهم على القليل والكثير، والصغير والنقير والقطمير.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾:

نحن الذين سنتولى حسابهم، وسيعلمون ماذا سنفعل بهم،كما قال الله –عز وجل: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾